فلسفة الحروب وضرورة الانعتاق

مع بدء زمن المجتمعات الزراعية، تسبّب العنف البشري بـ ١٥ في المئة من مجمل الوفيات في العالم، وفي القرن العشرين تسبّب العنف بخمسة في المئة من الوفيات البشرية. أما اليوم، فقد أودت أعمال العنف بواحد في المئة من الوفيات ليس إلّا. وما ان حصلت الأزمة المالية الكونية عام ٢٠٠٨ حتى تدهور الوضع الدولي، فعادت حليمة إلى قصتها القديمة، وكما ان اغتيال الارشيدوق النمساوي عام ١٩١٤ اشعل نيران الحرب الكونية الأولى، فاي حدث في أطراف سوريا أو خطوة غير حكيمة في شبه الجزيرة الكورية شانهما أن يتسببا بنزاع شامل.

نظراً إلى النزاعات المتنامية في العالم وشخصية بعض العالم الغربي الحادّة نسبياً، هناك ما يدعو الى القلق. غير ان ثمة تبايناً بين عام ٢٠٢٠ وعام ١٩١٤. عام ١٩١٤، كان للحرب جاذبية ما لدى النخب العالمية لأن لديهم أمثلة ملموسة لكيفية نجاح الحروب في المساهمة في الازدهار الاقتصادي وتعزيز السلطة السياسية.

منذ أيام الأشوريين، نشات الامبراطوريات الكبرى عموماً عبر فتوحات عنيفة. عام ١٩١٤ أيضاً، اكتسبت الدول العظمى مكانتها عبر حروب افلحت فيها. أمست اليابان الامبراطورية قوة إقليمية عبر انتصارات عسكرية على الصين وروسيا، وغدت المانيا أولى دول أوروبا عبر تغلّبها على النمسا والمجر وفرنسا، وحققت بريطانيا أرحب وأغنى امبراطورية عبر سلسلة من الحروب في العالم - عام ١٨٨٢، عندما اجتاحت مصر...

حتى الولايات المتحدة مَدينة بمكانتها لعملها العسكري أكثر منها لإجراءاتها الاقتصادية وحدها. عام ١٨٤٦ اجتاحت مدينة المكسيك وهيمنت على كاليفورنيا ونيفادا ويوتا واريزونا ونيومكسيكو وعلى اجزاء من كولورادو وكانساس وويومنغ واوكلاهوما. وقد أثبتت معاهدة السلام ضم بلاد العم سام السابق لولاية تكساس الغنية والمترامية الأطراف. ولم تتكبّد بريطانيا والولايات المتحدة في فتوحاتهما الكبرى سوى حفنة من الجنود القتلى.

أدركت نخب واشنطن ولندن وبرلين تماماً بما تشبه الحروب الناجحة وما يكتسبون منها. أما نخب هذه الأزمنة من العقول المدبّرة فهي تشك في هذا المنحى. وعلى الرغم من أن بعض طغاة العالم الثالث والنافذين يسعون للتالّق عبر الحروب، يبدو ان معظم قوى العالم باتت تجهل كيفية شنّها.

ان أكبر الانتصارات في ذاكرتنا الحيّة - للولايات المتحدة على الاتحاد السوفييتي، قد تحققت في معزل عن أية مواجهات عسكرية ذات شأن. ثم شعرت الولايات المتحدة بمتعة عابرة في إحراز مجد عسكري من الطراز التقليدي في حرب الخليج الأولى، ولكنها صرفت المال الطائل في غمر اخفاقات عسكرية مشينة في العراق وأفغنستان. أما الصين تلك القوة الصاعدة مع بدء الألف الثالث، فقد تجنّبت في دأب واضح كل نزاع مسلّح منذ أن أخفقت في اجتياح فييتنام عام ١٩٧٩، وهي مَدينة في تنامي قوتها إلى عوامل محض اقتصادية. وهي في ذلك لم تحاكي الامبراطوريات اليابانية والايطالية لمرحلة ما قبل عام ١٩١٤، بل بالأحرى المعجزات الاقتصادية التي أحدثتها الامبراطوريات اليابانية والألمانية والايطالية في مرحلة ما بعد عام ١٩٤٥. وفي كل هذه الحالات، تحقّق الازدهار الاقتصادي والنفوذ الجيوسياسي بلا طلقة نار. حتى في الشرق الأدنى الذي يمثل ساحة الصراع - تجهل القوى المعنية كيفية شن حروب ناجحة فيها. لم تستفد إيران شيئاً من حمام الدم الطويل في الحرب الإيرانية - العراقية وتالياً باتت تتجنب كل مجابهة عسكرية مباشرة. تموّل وتسلّح الحركات المحلية من العراق إلى اليمن ولديها الحرس الثوري لمؤازرة حلفائها في سوريا ولبنان، ولكنها تحرص على ان لا تجتاح أي دولة. لقد غدت إيران الدولة الإقليمية المهيمنة ليس من أي نصر في ساحات المعركة المجيدة بل بالحري لتحفّظها في ذلك. وان عدوّيها اللدودين في ذلك الحين - أي الولايات المتحدة والعراق- أمسيتا متورطتين في حرب قوّضت رغبتهما في الانخراط في مستنقعات الشرق الأدنى، فتركتا إيران تستمتع بالغنائم.

ويمكننا ان نقول الشيء عينه بالنسبة إلى إسرائيل. فالدولة العبرية تبدو منذ عام ١٩٦٧، في أحسن حال على الرغم من خوضها بعض الحروب وليس بفضل نجاحها أو عدم نجاحها فيها. رتّبت عليها الأراضي التي احتلّتها بعد حرب ١٩٦٧ أعباء اقتصادية ثقيلة وخصوماً سياسيين. وشان إيران، حسّنت إسرائيل وضعها الجيوسياسي ليس عبر حروب ناجحة وإنما عبر تجنّبها المغامرات العسكرية. وفي حين اجتاحت الحرب أعداء إسرائيل السابقين في كل من العراق وسوريا وليبيا، بقيت هي على حياد ظاهر.

يبدو ان أعداءنا اليهود قد أدركوا، أسوة بالولايات المتحدة والصين وألمانيا واليابان وإيران، ان أنجح استراتيجيا في القرن الواحد والعشرين تكمن في البقاء على الحياد ولو ظاهرياً وترك الآخرين يخوضون الحروب بالنيابة عنّا.

العقل الشيطاني المدبّر هو دوماً جرثومة الحروب التي يخوضها البعض عند سواهم ممّن امسوا مجرّد دمى محرّكة. أما العقل المروّض، إن هو توفّر عند أمة ما، فينبغي أن نجعله أشدّ واقعية.

ألا فانفعلوا ولا تقتلوا. إن حفنة من الأعداء هنا وهناك قتلوا في معظم عقولنا الفكر قبل أن يحتلوا الأرض. فهل لنا معاً قرار وطني واحد يتجلى شرطاً لكينونتنا المتماسكة لا المهسوكة. نهضتنا الوطنية - الذهنية وحدها تصون أخيراً الاستقلال ورسالة الحرية التي ينبغي أن يركن إليها اخوتنا العرب الذين يحبوننا لينعتقوا معنا من الجمود والضلال ويمسوا صادقين. هل لليل العرب أن ينجلي عبر تحررنا الذي نشهد ربما تباشيره في هذه الأيام؟

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه

* من مداخلة للدكتور جهاد نعمان، كسفير للسلام في «الاتحاد العالمي للسلام» في مؤتمر عُقد في نيويورك من ٢٦ كانون الأول إلى ٣٠ منه.